قصة قصيرة:

الضياع

أ.د. زينب بيره جكلي

(حين يصبح هم المرأة من الزواج إشباع ثروة ، ويصبح همّ الرجل من الحياة كأس وغانية. يكون الفراق غير الحميد).

عرفتها شابة في الثالثة والعشرين من عمرها ، مرهفة المشاعر، متوقدة الأحاسيس، تكاد تذوب إذا ما أبدى لها إنسان، أي إنسان، عواطفه ، وكشف لها من مكنونات فؤاده.

كانت أقرب إلى القبح منها إلى الجمال ، ولكن عينيها الناعستين تضفيان عليها رقّة وجاذبية.

وكانت تربطني وأهلها روابط الجوار والعمل، وكنت أراها تغدو و تروح بلا رقيب على تصرفاتها، وكانت تحدثني عن ثقة أهلها بها وعن تربيتهم "التحررية" لبنت منطلقة وشاب متفتح ، وكلاهما فيما تزعم يثبت شخصيته ، في الحياة لينال منها المراد. وكنت وإياها على طرفي نقيض في التفكير ، فقد التزمتُ الإسلام منهج حياة ، ونبراس طريق التزمته عبادة وسلوكاً ، أمّا هي .. فهي في نظر الشرع مارقة أو شبه مارقة ، أو لنقل إنها لاتعرف من الإسلام سوى الطعن فيه والتهجم على أهله!.. لقد ربيت في أسرة تلهث وراء المادة .

وتترك لأولادها العنان .. فخالطوا دعاة الاختلاط ، وتشبعوا كراهية الدين الحنيف فى اجتماعات مغرضة ، ومع أصدقاء علمانيّين ، ينسبون إلى الإسلام زوراً وبهتاناً كل تخلف وتعصب ، ويوهمون الآخرين أنهم المتحررون. كنت مدرسة لها، ولما يمض على ذلك بضعة أشهر ، والشابة المخدوعة تحكي لي عن روحاتها وغدواتها مع الشباب دونما حياء أو مراعاة للمشاعر!!.. أو لعلها أرادت من ذلك أن تبدي لي نمطاً من حياتها ، لعلي أنساق معها في تيارها الجارف.. وكنت أسمع لها وأنا كارهة ، وقد أوجّه إليها ملاحظاتي إن استطعت إلى ذلك سبيلاً.

وأحسست يوماً بعد يوم أنّ علاقتها بي بدأت تزداد وأنّ نبرة التحدّي الّتي عهدتها بها بدأت تخفت شيئاً فشيئاً .. ثم حلّ محلّها نظرات حبّ و وداد!!..

وجاءتني يوماً وأفصحت عمّا في قلبها من مكنونات أحاسيسها و مشاعرها المخبئة.. وكثيرات هنّ اللواتي كنّ يطرين ويثنين.. وقلت في نفسي: وما ينفع الثناء؟ ولكلّ منّا وجهةٌ هو موليها؟.. وبدأت أتخذ من حديثها عن استقامتي وعفتي وسيلة لتعريفها بالإسلام ما استطعت إلى ذلك سبيلاً.

ومن أنا قبل الإسلام؟ وماشأني يومذاك؟!!..

وقالت لي ذات مساء..

أحبّك.. أحبّك يا أختاه. لو كانت المسلمات مثلك لأحببت الإسلام من أجلك..

وأدركت عند ذاك سبب البعد عن الإسلام..

لم ترتو المسكينة بخلقه ولا بصفاته ، ولا نوّرت عقلها بفكره أو بفقهه، فأنّى لها أن تحسن حديثاً؟ وما حديث الصبايا مثلها إلاّ عن زينة أو عن ثياب.. أما هي .. فقد كانت تحب حديث العلم والتقدم. والغرب والحضارة.. وتدعي أن الحجاب سبب التخلف ، أو هو ستار الماجنات.. وكنت أضيق منها، وأغار غضبة لله، فأرمي أولئك الشاردات بتسترهن بلباس العفيفات ، إن أردن ثروة من ثروات الحياة.

......

وقلت في نفسي مرة وأنا أفكر بها:

لك الله يانهلة.. أنت ظمأى إلى من يرشدك إلى الله، ويعرفك على شرعه، فلستِ كباقي النساء لو أحسن توجيه طاقتك.. ولكن أنى لمثلي أن يتكلم مع مثلها وقد كمّت الأفواه إلا مع الأهل والأخوات؟

ولاحت لي في سماء دنيانا شعاعة من أمل... وأردفت.

لعلّ هذه المسكينة تحيا بعد سبات، فتصيّر طاقتها لله. فيكون لي ذلك ذخراً يوم المعاد، ولها كسباً في موقف الحساب، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلّا من أتى الله بقلب سليم..

وذكرتُ ماضيَّ..

ألم أك عاصية فهداني الله، ألم أنغمس في الرياضة مع اللاهيات.. ثمّ أراد الله لي الخير فهيّأ لي رفيقة مقعد لتبصّرني سواء السبيل.. فلأفتح لها صدري. فلعلّها.. ولعلّها .. ثم ترددت قليلاً:

كيف يكون ذلك؟ وهي من هي، ولها صاحب تزعم أنه صديق؟!!

وأجابني داعي الإيمان:

أتقذي الشابة الغرقى من حياة شاردة..

وأحمد؟.. أليست لها معه روحات وغدوات دون علم ذويها، فما ينفع معها النصح وهو لها بالمرصاد يستهويها ويستغويها. قد تتوب إلى بارئها.

- لن يدعها أحمد وهو طامع بثروة أهلها، وأبوها عجوز سقيم
- لك ثواب الله على أيّ حال.. ألستِ داعية إلى الله؟
- وما معنى الدعوة إن لم تتعرضي لأمثالها؟
- وتهجمها على الاسلام..
- ليست بأسوأ من عكرمة بن أبي جهل، ومن صفوان بن أمية، ومن أبي سفيان، وقد استشهد الأوّل في سبيل الله وفقئت عينا الأخير في جهاده من أجل نشر دين الله.
- ولكن هذا الجيل لا يحمل من المروءة والشهامة ما حمله الأوائل
- بلى، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول "الخير فِيَّ وفي أمتي إلى يوم القيامة
- أو هذه من أمة محمد صلى الله عليه وسلم؟
- أجل!! ألم تلفظ لا إله إلا الله محمد رسول الله؟ ولئن يهدها الله على يديك خير لك من الدنيا وما فيها.

كانت هذه خواطر تصطرع في مخيلتي، وتدعني فى شد و جذب، فمن حولها رجال مَكَرَة، ونساء لاهيات عابثات..

ولكنها كانت قد بدأت تعجب بالإسلام..

......

وبدأت معها حديثاً.. وذكّرتها بحبّ الله سبحانه لبريته، وذكر الليل والنهار.. وحلاوة الإيمان، وانشراح الصدر، والتهجد إلى الله في ساعات الخلوات...

وقلت لها مشجّعة:

ما أحسن الأذكار فى جنح الدجى لما سها كل البرايا حولنا.

......

ونظرت إليها يوماً، وقد بدت على محيّاها علائم الايمان والحياء.. وقالت لى وهى خجلة:

- أريد أن أتزوّج
- هذا حق من حقوقك يا بنيّتى

وأردفت قائلة:

- ولقد كبرت و لم يتقدم إلىّ خاطب مناسب إلّا أحمد
- أحمد!! أهو هو؟
- لقد أحببته منذ سنين، أو ليس من عشق فعفّ فمات مات شهيداً؟ تسمرت أمامها كالمبهورة مما أرى وأسمع.. ودارت في مخيلتي ألاعيب الماكرين. وخداع الفتيات، وتشويه صورة الإسلام في عيون القارئين لإبعاد الشباب والشابات عنه.. ولجذبهنّ إلى الهاوية تحت ستائر شتى.. ليكون كلٌّ لكلّ متاع..
- وتمالكت نفسي أمامها، وقلت لها في عجب:
- كيف يكون شهيداً من كان همّه اللهات وراء النظرة والوجه الحسن؟ وإذا كان عبدا لله بن المبارك قد عاب على عابد الحرمين أن يدع الجهاد في سبيل الله، وأن يشغل نفسه بالعبادة فأنشد وأرسل إليه:

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا لعلمت أنّك بالعبادة تلعب

من كان يخضب جيده بدموعه فنحورنا يوم الكريهة تخضب

إذا كان قد استنكر فعله والفضيل يجلس في الحرمين يهدي الناس إلى سواء السبيل، وقد طلب منه أن يجاهد العدو حتى تخضب لحيته بالدماء، ويشرب سيفه منها، فمن أين هذا الشباب اللاهي بالجهاد.

- أوَ ليس الجهاد جهاد النفس؟
- للشهادة والجهاد معان أسمى من هذا بكثير، إن الجهاد إنقاذ العالَم من الضياع، ومما يتخبّط فيه من نظم وأعراف.. ومن خضوع للعباد إلى حرية يتوجه بها الإنسان إلى رب العباد
- على أيّ حال إنني أريد أحمد.. أحرام أن أتزوّج؟
- كلّ أنثى يا نهلة تحب أن تأوي إلى رجل يكون لها سكنا وتكون له، هذه فطرة الله التي فطر الناس عليها.. ولكن أتتزوّج الواحدة أيّاً ما كان، وكيف ترتضين لنفسك رجلاً عابثاً مع العابثين، وأنت تخطين في طريق الخير والصلاح.. مهلاً يا أختاه.. ليس الزواج تسلية ومتعة بقدر ما هو مسؤلية وعبادة

......

لم تستوعب كلامي وقتذاك.. كان رغبتها بالزواج من أحمد فوق ما يتصوره الخيال.. وليت أحمد كان يستحق ذلك.. إنه لا يبالي بها، إنما تتمنى ماها. ولتكن زوجته أو لا تكون.. ففي غيرها إشباع شهوة وتسلية ساعة..

ونصحتها مراراً.. ولكنها سدت أمامي كالمراهقة الشاردة، وغطى إحساسها بالخوف من المصير كل تفكيرها وقالت لي أتريدين أن أبقى عانسة؟

ونسيت الصبر والقدر، وتخيلت الدنيا ذات بهجة ونعيم مع رجل ما جن أو... خليع!!.

وجاءت خطبة أختها لتذكي فيها مشاعر الأنثى.. ولم تعد تحتمل العزوبة وانصاعت للنداء الخافت... وصارحت أهلها بمن تريد.. وعجب الجميع من سوء الاختيار.. ثم ما حرّكوا ساكناً بعد. لقد أطلقوا لها حرية الاختيار من قبل ومن بعد!!..

وقلت لها ناصحة في محاولة أخرى

لو اخترت رجلاً صالحاً. وأفضيت عليه مشاعرك الرقراقة وعواطفك الفياضة لعشت العمر عمرين. سوف يعجب بك الرجال لأنوثتك. فاختاري شريك حياتك ممن يدعون إلى الجنة. وابعدي عن أحمد فإنه يقودك إلى النار... "ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم" كما يقول الله سبحانه وتعالى..

وكادت الفتاة أن تقتنع وشغلها الامتحان..

ومات أبوها في هذه الفترة.. وطمع أحمد بثروتها التي ورثتها وما هي بالكثيرة ولكنها تكفي لشراء بيت متواضع.

وأرسل إليها أحمد بعد أن كادت تتحلى عنه:

"نهيلة.. أنت ماء حياتي. ورواء ظمئي. متى اللقاء يكون؟

إذا قالوا اتشعر بارتياح ونهلة قدنأت وحلّ البلاء

أجبت بأن قلبي في استعار ويطفئ جمره بها لقاء

وعيني مثل أعشى في ليال فإنّك لهما أيضاً ضياء

أنت الدرّة البهيّة.. وقد دب فيّ السقام لبعدك عنّي أسعدت صباحا فتاتي الغالية. ولا تنسي صديق السنين

ونهلة لا تميل الدهر عنها ونهلة للحياة هي الجمان

ونهلة بعدنا عنا عسير ورؤية نور عينيها المنان

كانت هذه الكلمات الناعمة كافية لأن تعيد نهلة صلتها بأحمد، ولا سيما بعد ما رسبت في امتحان الشهادة الثانوية، و لم يبق أمامها حرية للاختيار، بزعمها.

وحدثتها.. وحدثتها.. حتى مللت الحديث.. لقد أصمّت أذنيها وغشي قلبها غاشية سوداء.. وما ينفع حذر من قدر!! وقطعت صلتها بي، وما شأنها وشأني وقد ساقها الشيطان إلى حياة أخرى.. ودفعها الهوى إلى سوء العاقبة.. وهل يجرّ الهوى سوى الهاوية.. و للانزلاق طرق شتى.. ومرت سنون وسنون.. واغتربت عنها..وكنت أتلقط أخبارها بين الفينة والأخرى، وآسى لواقعها المرير.

لقد تزوجت أحمد كما رغبت. ورفعت الحجاب، وقصّرت الثياب. وزيّنت الوجه والشعر.. وقدّمت له مالها، دنياها وآخرتها.. وعاشت معه في بيت متواضع. لا أثاث فيه كالذي كانت تحلم.. ولاغذاء كالذي كانت تتغذى..

وضاقت بحياة لم تتعود عليها.. وضاق هو بإسار المرأة.. وانفلت يعاشر غيرها فشكت.. ثم بكت.. وصرخ وشتم ثم سبّ ولعن، ثم ضرب الضرب اللئيم.. ثم راح يعود سكران جذلاً مع السحر أومع الفجر..

ونهلة في البيت تخدم الصغار وترعى الأسرة.. وعانت ما عانت، وهو يتردى في كل يوم.. و لم تكن تدري أن الزمان يخبئ لها ما لم يكن في الحسبان.

......

وكتبت إليّ رسالة عبرت بها عن مكنونات نفسها.. لقد وجدتني اليوم ملاذها الوحيد، كما وجدتني في الأمس البعيد.

"…. ولم أجد في الزوج ما كنت أتمنّاه.. لم يفهم مشاعري الرقراقة.. ولا عاش مع أحاسيسي… لقد أحببته حباً جماً، وكنت معه كالنسيم الوادع، أذبت شخصيتي في ذاته، ولكنه كان كالذئب الماكر، يتطاير الشرر من عينيه، ويحتال ليحصل على رغائبه، تخلّيت عن ديني من أجله، فخسرت الدنيا والآخرة معاً وذلك هو الخسران المبين.

"أكتب إليك والفؤاد مجروح أسود، ينزف دماً، والعيون دامعة كنهرٍ جارف، والعواطف تتأجّج في الصدر.. أنا كالمريضة بانفصام الشخصية.. أحدّث نفسي، أو أقف أمام محدّثي جامدة كتمثال أصمّ… في نفسي ثورة غضب جامحة كيف أرويها، أو كيف أطفئها، ضاع منّي كل شيئ.. الزوج.. وقد هجم عليّ ليذبحني بسكينة فهربت إلى الجيران.. ثم أويت إلى أهلي.. وضاع الولد.. وما أمرّ فراق الولد.. وما أشدّ إيلام فلذات الكبد، كل شيئ يهون إلا البعد عن الصغار.. وهم في مثل عمر الورود أحوج ما يكونون إلى جنان..

"جرحي لا يندمل، لم أخش الفقر بعد أن أنفق ما أنفق في عربدته، ولم أستصعب التنقلات من منزل إلى آخر أسوأ منه، استغلّ حبيّ له.. وبرز إلى الوجود كوحش متنمّر..

"أنا الآن أكاد أحبه، أحسّ بأن عقلي يهتزّ في دماغي، أتصفح دنياي معه، كيف افتقدتها بلحظات غضب، صرت الآن مطلقة.. وتزوج هو من أخرى هي أجمل منّي وأكثر مالاً.

"أعاتب ربّي مرة.. وأتوب أخرى.. وأود أن يضمّني صدرك الحنون، لينتشلني من واقعي المرير، فراسليني يا أختاه فكلماتك بلسم وشفاء"

قرأت تلك الكلمات اللاهثات..والدموع النافرات وقلت في نفسي: رجال!!.. بل أشباه رجال!!.. مع نساء يسعين وراء زواج!!.. وما الذي

ينتظر من إنسان همّه الدنيا وملذاتها.. لقد رأى غيرها فتحوّل عنها. ولـو رأى ثالثة لأشبع هوى نفسه ولذة الدنيا عند أمثاله كأس شراب وغانية و:

إن هدى الإله سبيل فلح وحيد الدرب تاركه يعاب

وعدت أراسلها لاطفئ غليل نفسها بمعاني الإيمان والهداية. ومـا أحسـنها من طبيب يداوي أسى الجراح..

****